العرب
الأحد 2019/11/24
السنة 42 العدد 11538

التفاعل الجديد مع القضية الفلسطينية.. هروب من المشكلات

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

تأثرت مكانة القضية الفلسطينية سلبا مع توالي الصراعات في المنطقة، ولم تعد تحتل مركزا محوريا في وجدان وعقل العديد من الشعوب والحكومات العربية عقب انفجار طوفان من الأزمات، في كل من العراق وسوريا وليبيا واليمن ولبنان، وتعاظم مشكلات مصر وتونس والجزائر والسودان، وتقدم المواجهة مع إيران مع العالم في منطقة الخليج. وقيل إن قضية فلسطين طواها النسيان مع اشتداد الخلافات والانقسامات على ساحتها الداخلية، وهبوط سقف الطموحات بشأن التوصل إلى تسوية سياسية منطقية.

عادت القضية الفلسطينية أم الأزمات في الشرق الأوسط لتطل برأسها فجأة خلال الأيام الماضية، ويتفاعل مع بعض تفاصيلها الإنسانية والسياسية خطاب شعبوي في المشرق والمغرب العربي، لا يتناسب مع خفوت خطاب الكثير من الحكومات في مواجهة التغول الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. وظهرت معالم الأول في منتديات ولقاءات عربية مختلفة.

قطاع كبير من الفلسطينيين نسوا عدوهم الأصلي، وهو إسرائيل، وتفرغوا لعملية مضنية لتصفية الحسابات البينية، والقفز لتوطيد العلاقة مع بعض القوى الإقليمية التي لها مآرب ليس في مقدمتها استعادة الحقوق الفلسطينية كاملة

كان لافتا أن تتقدم هذه القضية في خطاب رئيس الجمهورية التونسية الجديد، قيس سعيد، في كلماته الأولى بعد نجاحه في الانتخابات ثم تسلمه السلطة، بل وتتردد عبارات وأشكال التعاطف معها في بعض التظاهرات. وتصدح حناجر الشباب بدعمها في بعض الملاعب العربية، وكأن هناك مايسترو يقوم بالتخطيط لانتقال العدوى من فناء إلى آخر، ما يبعدها عن العفوية المعتادة التي تجذب الناس عندما يرون تصاعدا في حدة الهجمات الإسرائيلية.

جاءت قضية الاعتداء مؤخرا على المصور الصحافي الفلسطيني، معاذ عمارنة، لتزيد الزخم، حيث نددت الكثير من النقابات المهنية بقيام قوات الاحتلال بإصابته في إحدى عينيه. وبدا كأن خطابا عربيا يولد من جديد يتعاطف مع القضية برمتها، مع أن الكثير من الفلسطينيين نسوا عدوهم الأصلي، وهو إسرائيل، وتفرغوا لعملية مضنية لتصفية الحسابات البينية، والقفز لتوطيد العلاقة مع بعض القوى الإقليمية التي لها مآرب ليس في مقدمتها استعادة الحقوق الفلسطينية كاملة.

لم تحرك انتهاكات إسرائيل من قتل وتدمير وتهجير وتغول في المستوطنات ومحو للذاكرة الفلسطينية وصفقات مشبوهة، ساكنا، أو تدفع نحو الالتفاف حول موقف عربي لردعها، والذي اقتصر على شجب وتنديد لفظي من حين لآخر، بما أراحها وشجعها على التمادي في تجاوزاتها داخل الأراضي الفلسطينية واللبنانية والسورية، وحتى العراقية، ولم تطمئن للتطورات الحاصلة في علاقاتها مع بعض الدول العربية، وبقي معظمها يدور في الخفاء ورهينة لنبض شعوب لا تأمن لها تماما.

تصرفت حكومة إسرائيل وفقا لسياسة العصا والجزرة في علاقتها مع الفصائل الفلسطينية، لأنها تعلم أن المبالغة في الأولى يمكن أن توقظ حسا شعبيا عربيا نائما، ولذلك لم تبخل من وقت لآخر بالتلويح بالثانية، مع أنها كانت تستطيع إنهاء ما تبقى من القضية دفعة واحدة.

تمكنت إسرائيل من الحصول على دعم ووعود أميركية سخية، وخشيت أن تؤدي التصفية الخشنة إلى إيقاظ شارع عربي هادئ قد يتحول إلى هادر يبحث عن التعلق بأهداب قضية قومية، بعد أن عجز عن تحقيق أحلامه في إصلاحات وطنية وضبط لميزان الحريات وحقوق الإنسان، ولم تتمكن حكوماته من الاستجابة لتطلعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

من المفارقات المدهشة أن التفاعل العربي مع القضية الفلسطينية وجد أصداء رسمية وشعبية واسعة، ليس لأنه يوقظ الحس القومي ويبعثه من جديد، أو يعني أن هناك استعدادا للتجاوب معه، بل لأنه يحمل جملة من الرسائل السياسية التي يضعها كل طرف في جعبته، حتمت التفاهم بصورة غير مباشرة، وسهلت الطريق أمام استهداف إسرائيل دون دفع تكلفة مادية باهظة، وربما الحصول على فوائد معنوية.

على المستوى الرسمي، ثمة ركود في كثير من الدول العربية يتعلق بالإخفاق الكبير في التصدي لإسرائيل وعدم العثور على طريقة ناجعة تخفف قبضتها، وغاية ما يتم البحث عنه من قبل بعض الحكومات ضمان استمرار حالة اللاسلم واللاحرب، ومنع نشوب معارك مدمرة، حتى لو كانت هذه الصيغة تقود إلى المزيد من التآكل في عظام القضية الفلسطينية، ويمثل الانخراط الشعبي دون تحريض رسمي معلن بابا خلفيا للضغط على إسرائيل، ويقلل من التحركات الأميركية الرامية إلى تسريع تطبيق صفقة القرن، وتحمّل تبعاتها عربيا.

إذا كانت هناك عوامل نحّت هذه الصفقة جانبا حاليا، فلا تعود إلى عبقرية واختراعات ومناورات صانع القرار العربي، لكن إلى طبيعة التحديات التي تواجهها، ومن بينها احتمال غليان وانفجار الشارع العربي، لأنها تقضي على كل أمل في وجود كيان فلسطيني مستقبلا، ما يفسر عدم انزعاج بعض الدوائر من التعاطف الشعبي مع القضية الأم، لأنه يعوض ما يمكن وصفه بـ"الصمت الرسمي" والعجز عن القيام بجهود تلغي الصفقة أو تساهم في تعديلها بصورة جوهرية وتحفظ الحقوق الفلسطينية.

ينطوي التفاعل أيضا على إشارة ردع تحمل عنوانا ضمنيا لإسرائيل، مفاده أن تصرفاتها العدوانية في فلسطين غير مأمونة العواقب، وعليها أن تضبط إيقاع توجهاتها كي لا تنفلت الأمور، لأن زعامات عربية قد تصبح مضطرة إلى الانصياع لصوت الجماهير الرافضة للمزيد من الانخراط معها في علاقات ودية علنية.

تعتقد بعض الحكومات العربية أن الانشغال بالقضية الفلسطينية، وحتى خروج تظاهرات تتعاطف معها، يريحها في مسألة توجيه الاحتقان ضد أنظمة فشلت في تحقيق أهداف شعوبها، لكن الخوف أن يقود الانفعال بها إلى نجاح الجماهير في أن تفرض على حكامها خيارات صعبة في التعامل مع إسرائيل، أو تنحرف التظاهرات عن مسارها وتؤدي إلى الدخول في حلقة تخشاها دوائر رسمية عدة، وهي العودة إلى مربع الإصلاحات السياسية باعتبارها مسؤولة عن حزمة كبيرة من الإخفاقات والأزمات، بينها السكوت عن تضخم تهديدات إسرائيل.

على المستوى الشعبي، تتلاقى رغبات الجماهير مع الحكومات في التفاعل مع القضية الفلسطينية في زاوية أخرى، تتعلق بعجز كل منهما عن الاقتراب منها عبر أدوات سياسية أو عسكرية تقدم حلولا عملية تساعد على تخفيف وطأة الضغوط على المواطنين في الأراضي المحتلة، وأصبح التعاطف الرمزي واحدة من الوسائل الرئيسية للتنفيس عن طاقة غضب شعبي قابل لتغيير وجهته.

وجدت قطاعات كبيرة من المواطنين والنخب والحكومات أن خروج الطاقة المكبوتة في شكل تظاهرات عارمة ضد الأوضاع الداخلية، قد يتسبب في زيادة الأزمات ويجعل شبح بلدان، مثل سوريا وليبيا واليمن، يلوح في الأفق، الأمر الذي يفسر ارتفاع درجة الانضباط في الاحتجاجات التي يشهدها لبنان والجزائر، وبشكل أقل في العراق، ويتم غض الطرف عن ارتفاع وتيرة التعاطف مع الشعارات المنحازة إلى فلسطين.

النقطة الأهم التي يكشف عنها خطاب التفاعل مع القضية الفلسطينية، أن مفرداته الراهنة قريبة من التيار الإسلامي والمتحالفين معه من النخب اليسارية، وهذا لا ينفي وجود عناصر مشاركة من تيارات أخرى، ويميل هذا الفريق إلى التركيز على المناسبات التي تظهر فيها حركة حماس الفلسطينية كفائدة للمقاومة، بما يجعل عملية الانجذاب تبدو ممنهجة لدعم خطاب أدمن الهروب إلى الخلف، ويفتقر إلى تقديم رؤية صحيحة للأمام.

توقف التجاوب عند الحدود اللفظية التي تدغدغ مشاعر الناس، ولم تظهر عليه معالم ناضجة تؤكد وجود خطة لمساعدة حقيقية للقضية الفلسطينية والخروج من عثراتها، أو دفع قوي باتجاه الضغط على الحكومات للقيام بتحركات محددة لنصرتها، والتصدي مباشرة لما تقوم به إسرائيل من عمليات متفرقة قصمت ظهر المرتكزات التي تستند عليها، ما يشير إلى أن الانفعال لحظي والأسباب رمزية، ولا علاقة له بمد قومي عربي أو إسلامي جديد.

اعتداء جدّد التعاطف

أزمة الثقة داخل الناتو تدفع لاستكمال بناء الدفاع الأوروبي المشترك

نورالدين الفريضي
كاتب وصحافي تونسي

بروكسل – عندما يلتقي زعماء قادة حلف شمال الأطلسي بعد عشرة أيام في لندن للاحتفال بالذكرى السبعين لمعاهدة واشنطن، ستكون أزمة الثقة والخلافات التي تشق صفوف الحلفاء أحد العناوين البارزة في اللقاء، رغم محاولات كبار المسؤولين التخفيف من وقع وصف "الموت السريري"، الذي أطلقه الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون على وضع الحلف، خلال حديثه إلى الدورية البريطانية "ذي إيكونوميست" في منتصف شهر نوفمبر.

كلام الرئيس ماكرون يشير إلى انزعاج بلاده من سلوك عدد من الحلفاء وخاصة الولايات المتحدة وتركيا.

الأولى انسحبت من شمال شرق سوريا دون التنسيق مع القوات الفرنسية الخاصة العاملة في المنطقة، والثانية لم تتردد في دفع قواتها لاحتلال جزء من تراب دولة ذات سيادة تقع على حدود تراب الحلفاء، على الرغم من أن مفهوم سيادة سوريا قد يتخذ بعض النسبية بالنظر إلى واقع الاحتلالات المتعددة والمتناحرة في ما بينها.

الدول الأوروبية، وفي مقدمتها فرنسا، وجدت نفسها فجأة في بداية أكتوبر، أمام خطر احتمال فرار المئات من المقاتلين والرعايا الأوروبيين المعتقلين والمحتجزين في السجون والمخيمات التي تشرف عليها "قوات سوريا الديمقراطية" المؤلفة أساسا من المقاتلين الأكراد.

حديث الرئيس ماكرون صدم ألمانيا أهمّ شريك لبلاده في القارة الأوروبية، قبل أن يصيب الحلف ككل، حيث سارع المسؤولون في جناحي التحالف الحاكم ببرلين إلى الرد عليه؛ من المستشارة أنجيلا ميركل إلى وزير الخارجية هايكو ماس مرورا بزميلته وزيرة الدفاع أنغريت كرامب كارينباور. وهذه الأخيرة عقبت على كلام الرئيس ماكرون بأن الحلف حيٌّ روحا ودما.

وقالت "قلب الحلف ودماغه يعملان" بوتيرة الحياة. الوزيرة أنغريت تقود الحزب الديمقراطي المسيحي ومرشحة لخلافة المستشارة ميركل التي أكدت من جانبها رفضها التشخيص الصحي الذي وضعه الرئيس إيمانويل ماكرون.

ورأى وزير الخارجية هايكو ماس (الحزب الديمقراطي الاجتماعي) في مقال نشره في موقع دير شبيغل "أن إضعاف الحلف خطأ جسيم. ومن دون الولايات المتحدة، ليس بوسع كل من فرنسا أو ألمانيا حماية مصالحهما".

واقترح ماس بالتنسيق مع نظيره الفرنسي جان إيف لودريان في اجتماع وزراء خارجية دول الحلف تكليف لجنة من الخبراء، تحت إشراف أمين عام حلف الناتو، من أجل "توضيح مستقبل دور الحلف". ويسعى أمين عام الحلف في اللقاءات والاجتماعات التمهيدية للقاء القمة التخفيف من حدة الخلافات التي تشق صفوف الحلفاء.

واستخدم ينس ستولتنبرغ أدلة بيداغوجية تبريرية لتدوير زوايا القضايا الحادة. وقال في مؤتمر صحافي ببروكسل في 19 نوفمبر "هناك اختلافات في المواقف بين الدول الأعضاء. لكنها خلافات بين دول ديمقراطية. وقد عهدنا الخلافات، داخل الحلف، من أزمة قناة السويس في 1956 إلى حرب العراق في 2003".

ورأى أن "قوة الناتو تكمن دوما في قدرة الحلفاء على الجلوس إلى طاولة الحوار وضمان الوحدة بشأن المهمة الأساسية المتمثلة في الدفاع المشترك عن بعضنا البعض".

وأضاف ستولتبرغ الحلف "في حاجة إلى المزيد من الجهود الأوروبية في مجال الدفاع" و"ليس إلى قوة بديلة منه أو تعوضه".

كلام الرئيس ماكرون إلى الدورية البريطانية لا يعبر عن مزاج زعيم شاب طموح أزعجته عملية التوغل التركي في شمال شرق سوريا. بل استنتاج للوضع الاستراتيجي وتغيّر موازين القوى في الاتحاد الأوروبي، إذا غادرته فعلا بريطانيا، وفي الساحة الدولية بالنظر إلى قوة الصين الصاعدة من ناحية واستمرار جمود الوضع بين الاتحاد الأوروبي وبين روسيا، من ناحية أخرى، إضافة طبعا إلى المواقف الأميركية غير المتسقة تجاه أوروبا.

لا يتردد الرئيس دونالد ترامب في تشجيع بريطانيا على الخروج من الاتحاد الأوروبي. وكان ماكرون عقّب، في نهاية القمة الأوروبية الأخيرة ببروكسل في 18 أكتوبر الماضي، على تغييب الولايات المتحدة وتركيا للشركاء الأوروبيين عن قرارهما بإخلاء القوات الأميركية المجال للتوغل التركي في شمال شرق سوريا.

واستنتج ماكرون "الحاجة إلى مراجعة سير الحلف وآليات التنسيق بينهم". وقال "فوجئت بتغريدة على تويتر حول شأن انسحاب القوات الأميركية من المنطقة. ثم علمت أن قوة ثانية تابعة لبلد عضو في الحلف هاجمت شركاء التحالف الدولي، على الميدان، في الحرب ضد داعش".

واعتبر الرئيس الفرنسي العملية المنسقة بين الولايات المتحدة وتركيا "خطأ يرتكبه حلف الناتو في المنطقة فينسف مصداقية الغرب ويضعف قدرته على إقامة تحالفات في المستقبل بمنطقة استراتيجية ومجاورة لأوروبا".

واتفق الرئيس ماكرون والمستشارة ميركل مع رئيس الحكومة البريطانية على لقاء الرئيس رجب طيب أردوغان على هامش اجتماعات القمة في لندن "من أجل فهم الوجهة التي تسلكها تركيا، إلى أين هي سائرة، ومحاولة إعادتها إلى سلوك عقلاني".

الخطاب الفرنسي إزاء حلف الناتو، وبعض الشركاء داخله، يعزز المقاربة المعلنة والجاري تنفيذها من أجل تعزيز بناء قدرات عسكرية مستقلة عن حلف الناتو تمكن الاتحاد الأوروبي من تنفيذ مهمات حفظ السلام والدفاع عند الاقتضاء عن مصالح أوروبا في المناطق المجاورة.

ستولتنبرغ استخدم أدلة بيداغوجية تبريرية لتدوير زوايا القضايا الحادة مشيرا إلى أن هناك اختلافات في المواقف بين الدول الأعضاء. لكنها خلافات بين دول ديمقراطية

وانضمت أكثر من 12 دولة إلى مبادرة التدخل الأوروبية التي أطلقت قبل عامين من أجل تشكيل قدرات أوروبية قادرة على التعبئة والتدخل في المناطق القريبة من حدود الاتحاد والتي قد لا تريد الولايات المتحدة زجّ قواتها فيها. أصل الاقتراح يعود إلى الرئيس ماكرون في 2017. كذلك، بدفع فرنسي، مدعوم من ألمانيا، أنشأ الاتحاد الأوروبي صندوق الدفاع بموازنة بلغت 14 بليون يورو من أجل تمويل أبحاث التطوير في المجال العسكري والتي يفترض أن تستفيد منها شركات الصناعات العسكرية في دول الاتحاد ولكن بشرط أن تكون المشاريع مشتركة وتلبي حاجات تقسيم العمل ومخططات التجهيز التي تضعها الدول الأعضاء.

كما أنشأت القمة الأوروبية منذ أكثر من سنة هيكلا مشتركا لتنسيق العشرات من مشاريع التجهيز العسكري المشتركة. وتعد الخطة مرنة حيث تمتلك كل دولة عضو حق المشاركة، إذا أرادت.

المشاريع المشتركة الجارية والمزمعة، وعمليات حفظ السلام والتدريب التي يقودها الاتحاد في منطقة الساحل الأفريقي من أجل دعم دول المنطقة على اكتساب قدرات عسكرية لمكافحة الإرهاب، تشكل معا لبنات صغيرة في مسار بناء الدفاع الأوروبي المشترك. مسار جنيني لن يكون قصيرا. وحيث لا يمكن لدولة أوروبية بمفردها مثل فرنسا امتلاك قدرات الدفاع عن مصالح الاتحاد الأوروبي ككل.

واستنتج الرئيس ماكرون حاجة أوروبا إلى "التزود بقدرات ذاتية" للدفاع عن مصالحها ومن دون ذلك فإن "الدول الأوروبية ستكون قوة إسناد فقط من دون القدرة على التأثير"، في عالم تتنافس فيه قوى صاعدة مثل الصين وأخرى لا تريد فقدان موقعها الريادي هي الولايات المتحدة، أو روسيا التي استعادت جزءا من منطقة النفوذ السوفييتي في النصف الثاني من القرن الماضي.